# إصلاح التعليم الديني في المشاريع السلطانية: نماذج مغربية من التاريخ المعاصر

# *Reforming Religious Education in the Sultan's Projects: Moroccan Models from the Contemporary History*

**د. عبد الجليل بوسيف:** أستاذ مكون بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين جهة فاس مكناس، وأستاذ مادة التربية الإسلامية و الديلكتيك وأخلاقيات المهنة، المغرب

**Dr. Abdjlil Boussif:** Professor at the Regional Center for the Professions of Education and Training in the Fez-Meknes region and teacher of Islamic Education, Didactic and Professional Ethics

**Email:** jalilboussif@gmail.com

**الملخص**:

هدفت الدراسة للإجابة عن السؤال: إلى أي حد يفيد الوقوف على المشاريع الإصلاحية العلمائية والسلطانية في إصلاح مناهج التعليم الحالية؟ ولتحقيق أهداف الدراسة فقط استخدم الباحث المنهج الوصفي التاريخي. وتوصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أهمها الغنى والثراء الذي طبع المشاريع الإصلاحية السلطانية والعلمائية في تاريخ المغرب، كما أنَّ هناك جوانب كثيرة ووفيرة يمكن أن تفيد فيها تلك التجارب في كل عملية إصلاح وإقلاع وتجاوز للمثبطات والمعيقات التي تحول دون العملية التعليمية برمتها والأهداف المرجوة منها. وأوصى الباحث بمجموعة من التوصيات أبرزها ضرورة الرجوع إلى التاريخ دائما وأبدا عند كل عملية تنظير للمستقبل أو معرفة للواقع. فالتاريخ المتعلق بالعليم وطرائقه ومناهجه وأساليبه من آكد ما يهم الشعوب والمجتمعات في عمليات الإقلاع الحضاري وتاريخ الإسلام لا يشذ عن هاته القاعدة.

**الكلمات المفتاحية:** العلماء، السلاطين، الإصلاح، المدرسة المغربية

***Abstract:***

The study aimed to answer the question: To what extent is it useful to identify scientific and governmental reform projects in reforming the current education curriculums? To achieve the objectives of the study, the researcher only used the descriptive historical method. The study reached a set of results, the most important of which is: The richness and wealth that characterized both the sultan and scholarly reform projects in the history of Morocco, and there are many and abundant aspects which these experiences can be useful in every reform process, and overcoming the inhibitions and obstacles that prevent the entire educational process and its desired goals. The most important thing that the researcher recommended is referring to history at every theorizing of the future or knowledge of reality. The history related to education and its methods and curriculums are among the most emphatic of what concerns peoples and societies in the processes of civilizational take-off, and the history of Islam is no exception to this rule.

**Keywords**: scholars, sultans, reform, Moroccan school

**المقدمة:**

إن الانتماء الحضاري للمسلم يفرض عليه أن يظل دائما معتزا بتراثه، منطلقا منه راجعا إليه في كل عملية تفكير في النهوض من جديد، مما يقتضي تجاوز عتبة الافتخار بعمل الأسلاف والوقوف عند ما أنجزوه، بل لابد من الإضافة والبناء عليه. وهذا لا يتحقق إلا بنفض غبار الجهل والنسيان عما تزخر به مكتباته، وهي كثيرة ومتعددة. وهو الضامن لبقاء الأمة ونهوضها ورقيها، وهو معنى تمسكها بأصول هويتها ومنطلقات ذاتها. وإن حاجة الإنسان إلى التربية في مختلِف مراحله وأطواره، تعد ضرورة ملحة في كل العصور، لتقويم اعوجاجه، وتعديل مساره، والرقي به في مدارج الكمال، بما يجعل منه الإنسان الصالح في نفسه، النافعَ لغيره في بناء الحضارة وعمارة الأرض.

ولذا كانت التربية إلى جانب الإنسان، ترعاه وتتعهده مذ خلق الله آدم عليه السلامُ، وَوَكَل مهمتها إلى أشرف خلقه أنبيائه ورسله في مختلِف الأمصار والأعصار، ومن بعدهم الصلحاء والحكماء في سائر الأمم. وما قامت التربية في أمة على أسس صحيحة سليمة، ترعى أجيالها وتُرشِدهم وتحفظهم وتصونهم، إلا عزَّت تلك الأمة وسادت وعاشت حياة الرقي والتقدم والازدهار. وما غابت التربية السليمة في أمة من الأمم إلا تصدع بنيانُها، وتشتت شملها، وضاع أمرها، وعاشت عيشَة التعاسة والشقاء. وفي هذا السياق تأتي هذه الدراسة والتي تتعلق بالمحطات التاريخية لإصلاح التعليم بين السلاطين والعلماء بالمدرسة المغربية، لإبراز الأهميةِ التي يحظى بها إصلاح هذا القطاع، ولبيان الحاجة المستمرة إلى تجديده وتطويره، حسب ما يجد من مستجدات عبر توالي العصور.

**مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:**

إن الإشكالَ الذي يثيره البحث، هو ما يعانيه الواقعُ التربويُّ التعليميُّ ببلادنا كما يبدو واضحا من خلال واقعِ حاله وبشهادةِ المسؤولين أنفسِهم على هذا القطاع بمختلِف مستوياته. إذ إنه ومع جميع محاولاتِ الإصلاح، فإن الواقعَ التعليميَّ التربويَّ ببلادنا، لا يزال يراوح مكانه الموسومَ بالضَّعف والتردي على المستوى التربوي والعلمي، وبالتأخر في الترتيب والتصنيف العالميّ، مما حُق معه لكل غيور أن يسأل عن سبب هذا الضَّعف والتردي ويدعوَ لبحث سبل علاجه. ولا يخفى أن تراثنا التربوي فيه أجوبة شافية عن كثير من الإشكالات التربوية والتعليمية، فقد أرسى علماؤنا الأفذاذ قواعد وأسسا ونظريات لحل كثير من تلك الإشكالات. فكل بلد نجح في الخروج من أزماته ومجابهة تحدياته، قد بدأ بِفحص النظم التربويّة السائدة لديه. وما نجحت أمة إلا بعد اعتماد مبدأ المراجعة والتقييم الدوري لمبادئها وأفكارها، والبحث الدائم والمستمر لعلاج معضلات التربية والتعليم قبل استفحالها.

تحاول الدراسة الإجابة عن السؤال الرئيسي التالي:

إلى أي حد يفيد الوقوف على المشاريع الإصلاحية العلمائية والسلطانية في إصلاح مناهج التعليم الحالية؟

**وتترتب عن هذا السؤال الرئيسي، أسئلة فرعية يمكن صياغتها كالتالي:**

- ما أوجه الائتلاف والاختلاف بين مشاريع العلماء ومشاريع السلاطين في إصلاح مناهج التعليم في تاريخ المغرب؟
- أين مكامن الائتلاف والاختلاف بين تلك الرؤى الإصلاحية؟

**منهج الدراسة:**

اعتمد الباحث على المنهج الوصفي التاريخي، حيث جمع بين وصف المشاريع الإصلاحية للسلاطين والعلماء مع تتبعها التاريخي معتمدا في تحليلها على المقارنة بين أهم محطاتها ومراحلها.

**أهداف الدراسة:**

- الوقوف على مشاريع ومناهج إصلاح التعليم في بعض مراحل الدولة المغربية السلطانية والعلمائية.
- مقارنة الرؤى الإصلاحية السلطانية والعلمائية لمناهج التعليم بين أهم الفترات التاريخية بالغرب الإسلامي.
- الاستفادة من تلك الرؤى في عمليات الإصلاح المعاصر لمناهج التعليم.

**أهمية الدراسة:**

لا تخفى على المتتبع الحصيف الأهمية التي يكتسيها الحديث عن إصلاح مناهج التعليم والبحث في مشاريعه الإصلاحية الحاضرة والمستقبلية. وإن مما يفيد في ذلك ويعين عليه استلهام التجارب التاريخية واستقراؤها وتحليلها لغرض الوقوف على مكامن القوة والضعف فيها والبحث فيها عما يصلح أن يستمر في الوقت الحالي فيها.

## المطلب الأول: إصلاح التعليم الديني في المشاريع الإصلاحية للسلاطين

من المهم في هذا المقام، استعراض المحطات التاريخية لإصلاح التعليم بين السلاطين والعلماء بالمدرسة المغربية، لإبراز الأهميةِ التي يحظى بها إصلاح هذا القطاع، ولبيان الحاجة المستمرة إلى تجديده وتطويره، حسب ما يجد من مستجدات عبر توالي العصور، ولكي يتضح أن الدعوات

المعاصرةَ لإصلاح التعليم، ليست إلا حلقة ضمن هذا المسلسل المتتابع من الإصلاحات عبر فترات ماضية من الزمن.

وممن تناول هذا المسار التاريخي، وجلاه وأوضحه بالدراسة والتحليل، الدكتور "مصطفى بنحمزة" في مستهل برنامجه المقترح لإصلاح التعليم، أعرض فيما يلي خلاصته، تمهيدا لاختيار نماذجَ من الرؤى الإصلاحيةِ المعاصرة.

ففي المشاريع الإصلاحية للسلاطين، عبر توالي العصور، رصد أهم المحطات في عهد الموحدين، وفي عهد المرينيين، في عهد السعديين، إلى أن وصل به المطاف إلى عهد العلويين الذي اعتبره أكثر الأزمنة اهتماما بإصلاح التعليم الديني، على يد سلاطينه وملوكه، كالسلطان سيدي "محمد بن عبد الله"، الذي بذل جهدا في إصلاح التعليم وتجديد مقرراته، وكالمولى سليمان" الذي دعا علماء فاس إلى إصلاح التعليم الديني، كما اهتم سيدي "محمد بن عبد الرحمن" بإصلاح برامج التعليم الديني بالقرويين، فأدمج فيه مواد مثل الحساب والهندسة والفلك.

كما كان للمولى "عبد الحفيظ" اهتمامه بإصلاح التعليم، من خلال تأسيسه المطبعة الحفيظية مكان المطبعة الحجرية بفاس، ونشر منها كتبا عديدة في مجالات شتى[1].

واعتَبر ما قام به المولى "يوسف" من إصلاح الدراسة بالقرويين، أكبر مشروع لإصلاح التعليم الديني، من خلال تكليفه "محمد بن الحسن الحجوي" للقيام بهذه المهمة، التي أنجز بموجبها برنامجا متكاملا مع ثلة من العلماء، كان كفيلا بإحداث نهضة علمية تاريخية، لولا أن يد الاستعمار تدخلت فأجهضته.

كما شهد التعليم الديني بالقرويين الإصلاح على يد الملك "محمد الخامس"[2] من خلال نقله إلى نظام حديث على غرار غيره من أنظمة التعليم الابتدائي والثانوي والجامعي.

وكان من أبرز إنجازات "محمد الخامس" إتاحته الفرصة للمرأة لتستفيد من الدراسة بالقرويين، فأحدث لذلك دارا للفتيات وقد تولى تدشينها بنفسه، والتحقت بها مجموعة من النساء تخرجن بها سنة 1957.

1. مصطفى بنحمزة، التعليم الديني بالمدرسة المغربية بين السلاطين والعلماء، الرباط: جريدة هسبريس، 4 أبريل 2016م.

2. هو محمد الخامس بن يوسف، وُلد (1327 هـ / 10 أغسطس 1909م) بفاس، وتوفي (1381 هـ / 26 فبراير 1961م بفاس). بويع سلطانا للمغرب في 23 جمادى الأولى سنة 1346 هـ موافق 18 نوفمبر سنة 1927م، اتخذ لقب الملك سنة 1957م ولم يزل ملكا إلى وفاته سنة 1961م (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة بتصرف)

وفي عهد الملك "الحسن الثاني"([1]) شهد التعليم عموما وضمنه التعليم الديني طفرة واسعة من مظاهرها، أنه أصدر ظهير 6 فبراير 1969 القاضي بإعادة تنظيم جامعة القرويين تنظيما جديدا.

ومن أكبر إصلاحات "الحسن الثاني" للتعليم الديني إنشاؤه دار الحديث الحسنية عام 1964 وهي مؤسسة للدراسات العليا أتاحت لكثير من طلاب العلم الذين لم يكن لهم أفق لإتمام دراساتهم العليا أن يلتحقوا بها ويحضروا بها أطاريح علمية أنعشت المعرفة الإسلامية بالمغرب[(2)].

ومن مظاهر الإصلاح الذي اضطلع به الملك "الحسن الثاني"، إحداثه شعب الدراسات الإسلامية، وتوسيع انتشار كليات الشريعة وأصول الدين بالمغرب.

ومن منجزاته القيمة التي ظلت لزمن طويل أملا يراود عقول العلماء بالمغرب، إعادة الحياة إلى جامع القرويين وذلك عصر يوم الجمعة 21 ربيع الثاني 1409 الموافق 2 ديسمبر 1988 فاستأنف جامع القرويين نشاطه التعليمي، وفتح أمام طلبة العلوم الشرعية أملا واسعا لأخذ مكانهم الطبيعي من المجتمع، وأمد المغرب بأفواج من خريجيه الذين يشغلون في المغرب حيزا واسعا[(3)].

وقد تواصل إصلاح التعليم الديني في عهد جلالة الملك "محمد السادس"، وأصدر العديد من الظهائر المنظمة لتدبير الشأن الديني، ومن ضمنه التعليم العتيق الذي خصه بالظهير رقم: 1.02.09 الصادر في 29 يناير 2002، وهو متعلق بتفعيل القانون 13.01في شأن التعليم العتيق، وقد أتاح هذا الظهير لطلبة التعليم العتيق الانخراط في الحياة الاجتماعية والمساهمة في التأطير الديني بعد استفادتهم من تعليم جامعي.

ومن إصلاحات الملك "محمد السادس" دفعُه بالمرأة دفعا قويا إلى الأخذ بحظها من المعرفة الشرعية، وفتحُه آفاق الحضور لها في مجال العلم الشرعي، فوجدت العالمات والمرشدات والواعظات والحافظات للقرآن والمجيدات لرسمه وتلاوته.

1. الحسن الثاني بن محمد بن يوسف، ملك المغرب تمتد أصوله للأسرة العلوية، حكم المغرب بين 1961 و 1999. عرف بحنكته ودهائه السياسي منذ ريعان شبابه. كما يعدّ الحسن الثاني بانيا للمغرب الحديث وباعث نهضته وموحدا للبلاد ومحررا للصحراء المغربية سنة 1975. (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة بتصرف)

2. مصطفى بنحمزة، التعليم الديني بالمدرسة المغربية بين السلاطين والعلماء، الرباط: جريدة هسبريس، 04 أبريل 2016م (تلخيصا واختصارا).

3. المصدر السابق.

ومن إصلاحات الملك "محمد السادس" للتعليم الديني، تطوير التعليم العتيق، وترسيم شهادات التخرج به، فأصبح تعليما وطنيا يقف على درجة المساواة مع باقي أنماط التعليم بالمغرب. وأصبح خريجوه يشعرون باستوائهم مع غيرهم من التلاميذ والطلبة[1].

**أ – بواعث إصلاح التعليم الديني في المدرسة المغربية راهنا**

نظرا لأهمية تحديد الأهداف في نجاح أي مشروع إصلاحي، فقد لخص "مصطفى بنحمزة" أهداف وبواعث إصلاح التعليم الديني في المدرسة المغربية في عصرنا الراهن، من خلال ما جاء به الخطاب الملكي في ثلاثة محاور عبر عنها بما يلي:

- **أولا:** تعميق حضور المادة الدينية في البرنامج الدراسي، مع التركيز على إبراز قيم الإسلام السمحة، ومع استحضار عطاء المذهب المالكي السني الموسوم بالوسطية والاعتدال.
- **ثانيا:** توسيع نطاق تدريس المادة الدينية وتعميمها على كل مؤسسات التعليم العمومي، ومؤسسات التعليم الخاص، والتعليم العتيق.
- **ثالثا:** نشر ثقافة التسامح والتواصل مع الثقافات والحضارات الإنسانية[2].

**2 – إصلاح التعليم الديني في المشاريع الإصلاحية للعلماء**

أما مشاريع الإصلاح عند العلماء في القطر المغاربي، فتتمثل – حسب ما ذكره مصطفى بنحمزة – في دعوات كثير منهم إلى إصلاح مناهج التعليم الديني. ومن أبرز العلماء وجهودهم التي بذلوها في هذا المضمار: "ابن خلدون" في كتابه المقدمة الذي عقد في الفصل السادس منه مبحثا عن تاريخ التربية والتعليم لدى كثير من الأمم الإسلامية، وأبدى رأيه في الطرق المتبعة. وكذا "محمد بن الحاج العبدري" في الفصل الذي خصصه للحديث عن آداب المؤدب من كتاب المدخل.

كما عقد "اليوسي" الفصل الثالث من كتابه " قانون الحديث عن آداب المعلم في التدريس وعن آداب الدرس وعن طرق التدريس".

وفي الأزمنة الحديثة تنادى علماء كثيرون إلى إصلاح التعليم الديني، فكان لـ: "محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي" اهتمام كبير بإصلاح نظام التعليم بالقرويين، وكانت له رؤية أودعها كتابه

1 المصدر السابق.

2) مصطفى بنحمزة، التعليم الديني بالمدرسة المغربية بين السلاطين والعلماء، الرباط: جريدة هسبريس، 04 أبريل 2016م.

كناش الحجوي الثعالبي. وقد قارن فيه بين الحصيلة العلمية لطلبة القرويين وطلبة الأزهر وجامع الزيتونة، ودعا إلى إصلاح نظام التعليم بالقرويين.

وكان من مفردات الإصلاح التي استطاع "الحجوي" أن يحققها إدراج مادة اللغة العربية ومبادئ الدين في المدارس الدولية الابتدائية والثانوية.

وكان لـ: "عبد الله كنون"[1] رؤية لإصلاح التعليم الديني عبر عنها في كتابه "التعاشيب"[2].

وفي تونس كتب "محمد الطاهر ابن عاشور"[3] كتابه أليس الصبح بقريب، وتطرق فيه إلى طرق التدريس في المعاهد التونسية، واستهله بسؤال قال فيه: لما ذا نسعى إلى إصلاح التعليم. وتحدث عن تاريخ التعليم وعن محاضنه في البلاد الإسلامية، وتحدث عن تاريخ التعليم في المغرب الأقصى.

وأفاد "ابن عاشور" أن أمرا قد صدر بإصلاح أساليب التعليم بالجامع الأعظم، فتشكلت لذلك لجنة يرأسها الوزير محمد العزيز بوعتور، وفي عضويتها مجموعة من علماء تونس، وتم ذلك سنة 1898[4].

وبهذا العرض التاريخي الطويل لمشاريع الإصلاح للتعليم من لدن السلاطين والعلماء، يتبين أن دعوات الإصلاح الجديدة ليست إلا حلقة في هذا المسلسل المتتابع المتلاحق، متى عهد به إلى ذويه وأهله من أهل المعرفة والاختصاص بالعلم من العلماء الصالحين والفقهاء الربانيين.

1) عالم ومفكر مغربي، وأحد أعمدة اللغة العربية بالوطن العربي، ساهم في إرساء قواعد النهضة العلمية والأدبية في المغرب. ورفض تقديم البيعة لابن عرفة الذي أرادت فرنسا تنصيبه ملكا. ألف كتبا عديدة في مجالات مختلفة أعدت عنها رسائل ماجستير ودكتوراه، ومن مؤلفاته: "النبوغ المغربي في الأدب العربي"، و"ذكريات ومشاهير رجال المغرب"، و"أدب الفقهاء"، و"مدخل إلى تاريخ المغرب"، و"جولات في الفكر الإسلامي." و "التعاشيب" توفي عام 1989 في مدينة طنجة بالمغرب. انظر: عبد الله كنون العالم المصلح، (ت1309هـ) د. إبراهيم بن أحمد الوافي،

2) من طبعاته: طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، 2015م.

3 ) محمد الطاهر بن عاشور (تونس، 1296 هـ/ 1879. 13– رجب 1393 هـ/ 12. أغسطس 1973 ) عالم وفقيه تونسي، أسرته منحدرة من الأندلس ترجع أصولها إلى أشراف المغرب الأدارسة تعلم بجامع الزيتونة ثم أصبح من كبار أساتذته.

4) مصطفى بنحمزة، مصدر سابق.

❖ **الإصلاح التربوي من منظور الحجوي**

**1. التأكيد على أهمية التعليم**

إن نهوض الأمم وسقوطَها وتقدمها وتراجعها منوطٌ بالتربية والتعليم، فإن الأمة إذا نجحت في برامجها التربويةِ حققت أهدافها، وإن هي أخفقت تراجعت عن أهدافها. فالتربية والتعليم هي السبيل الأوحد للإصلاح، والبناءِ والنهوض والتطوير والتغيير، وإقامةِ مجتمعات المستقبل.

ومن هذا المنطلق نجد "الحجوي" يؤكد على أهمية التعليم في النهوض بالأمة في مختلف المجالات حيث يقول: "لا سبيل لأن نصير أمة معدودة من الأمم الحية إلا بتعميم القراءة والكتابة بين الحواضر والبوادي، وتعميم التعليم الابتدائي حتى يصير جل أفرادها رجالا ونساء يقرؤون ويكتبون... بحيث مطالعةُ الكتب البسيطة السهلة، يستفيدون منه دينهم ودنياهم، ومطالعةُ الجرائد وأخبار ما يقع في العالم، ليستوي الناس في إدراك مالهم وما عليهم، ويتساوى السوقي والعالم، والوزير والصانع في معرفة ما هو الضار للهيأة الاجتماعية، فينهضوا بأجمعهم لنفعهم، ودفع ضرهم، ويفهموا ما يلقى إليهم من الخطاب، وما هي عليه حياة غيرهم من الأمم ليجاروها في معترك الحياة"[1].

ولم يكتف "الحجوي" بإلقاء الخطب للحث على طلب العلم والتنافس فيه، بل وجه نصائح للسلطان في هذا المجال، فخاطبه قائلا: "يجب علي أن أقدم لسيادتكم الكريمة العالية بالله، نصائح مهمةً في الدين والسياسة وعلم الاجتماع، يجب أن يُغرسَ في قلوب شعب مولانا نهضةٌ علمية يخرج بها الشعب من ظلمات الخمول إلى مصاف الأمم الحية، وأول ما يتصدى له هو محاربة الأمية. فيجب وجوبا شرعيا واجتماعيا نشر التعليم الابتدائي العربي بين جميع الحواضر والبوادي، ويُجعل تعليمُ الصغار إجباريا ذكورا وإناثا"[2].

واقترح على السلطان أن يصرف ربع الميزانية العامة في التعليم وفي معاهد الصحة كما تفعل الأمم الراقية، كما أُلح عليه أن يتفقد التعليم كل يوم ولو خمس دقائق في اليوم"[3].

1) محمد بن الحسن الحجوي، "الرحلة الأوربية"، نقلا عن: أوربا في مرآة الرحلة. صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، سعيد بنسعيد العلوي، منشورات كلية الآداب. الرباط. الفكر السامي، ج2، ص455.

2) محمد بن الحسن الحجوي، "أساس التهذيب الاسلامي"، مخطوط خزانة عامة، نقلا عن: الفكر الإصلاحي في عهد الحماية، الحجوي نموذجا. آسية بنعدادة، ص244.

3) المصدر نفسه، ص244.

## 2. الرؤية الإصلاحية للتعليم في القرويين

أَولى "الحجوي" القرويين مكانة خاصة، إذ أفرد له عنوانا خاصا في كتابة "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي". فكان يصرح في كل المناسبات بأنه بارتقاء القرويين وانتظامها يتقدم الإسلام والثقافة والأدب، وبتأخرها يتأخر المغرب أدبا وثقافة ودينا. معللا بقوله: "لأنه المعهدُ الأعظم في إفريقيا الشمالية للعلوم العربية والدينية والآداب الإسلامية، لاسيما بعد سقوط الأندلس، فهو الينبوع المنير لهاته العلوم، والقبس النير للدين الحنيف"[(1)].

وعنها كان يقول أيضا: "فهي أمي وظِئْرِي، ومن ثديها العذب ارتضعت، وبها أميطت عني التمائم"[(2)].

وقد انتبه "الحجوي" إلى جمود مفهوم التعليم في القرويين بفضل رحلاته إلى أوربا، والتي مكنته من الاطلاع فيها على المفاهيم الحديثة للتعليم ومنهجه وأساليبه، وقارن ذلك بما هو قائم في القرويين. فانتقد الجمود والتقليد وسجل بمرارة، أن نظام التعليم في الإسلام قد عَرَض له ما عرض لمختلف مناحي الحياة الأخرى السياسية والاقتصادية من ضعف، وأصابه ما أصابها من فوضى بعدما كانت على حال عظيم من النظام، فبعدما كان نظامهم الذي ساروا عليه في أخذ العلم هو بناؤه على المشاهدة والتجربة، المجموعِ ذلك في قولهم: "جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفا" انتهى بهم الأمر إلى القول: "اقرأ ما في الكتب وقرر ما يقول الأساتذة تكن عالما "[(3)].

وبعدما كانت معاهد العلم ومجالسُه لا تخلو من مختلف أصناف المعارف، نجد أن علوما كثيرة قد تم هجرها"[(4)].

كما ينتقد "الحجوي" أساليب التدريس المتبعة في تلقين العلوم الدينية من فقه وحديث ولغة، وخاصة الفقهَ الذي بلغ درجة من التقليد، أفقد كل أمل في الاجتهاد والتجديد، يقول "الحجوي" متحسرا: "فلقد قضى هؤلاء المتأخرون على الفقه، أو على من اشتغل بتواليفه، وترك كتب الأقدمين من الفقهاء بشَغل أفكارهم بحل الرموز التي عقدوها بسبب الاختصار، فضاعت أيام الفقهاء في الشرح، ثم في التحشيات والمباحث اللفظية، وتحمل الفقهاء آصارا وأثقالا بسبب إعراضهم عن كتب المتقدمين،

1) الفكر السامي، الحجوي، 2/ 531.

2) المصدر نفسه. 2/ 531.

3) النظام في الإسلام. الحجوي: م. و. الرباط 1928 نقلا عن: الاجتهاد والتحديث: دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب. سعيد بنسعيد، ص 82.

4) محمد الحجوي، الرحلة الوجدية أو انتحار المغرب الاقصى بيد ثوراة، نقلا عن. الاجتهاد والتحديث سعيد بنسعيد. ص82.

وإقبالهم على التواليف المختصرة والمعتمدة التي لا تُفهم إلا بواسطة الشروح، واختصروا في الشروح، فأصبحت هي أيضا محتاجةً لشروح وهي الحواشي، فأحاطوا بستان الفقه بحيطان شاهقة، ثم بأسلاك شائكة، وألقوا العثرات في طريق ارتقائه، حتى يظُنَّ الظان أن قصدهم الوحيدَ جعلُ الفقه حِكرة بيد المحتكرين، ليكون وقفا على قوم من المعمَّمِين، ليكون حرفة عزيزة، وعينا من عيون الرزق غزيرة."

وتابع القول فقال: "ولما أغرقوا في الاختصار، فات المقصود الذي لأجله وقع الاختصار، وهو جمع الأسفار في سِفْر واحد، لتقريب المسافة وتخفيف المشاق وتقليل الزمان، فانعكس الأمر؛ إذ كثرت المشاق في فتح إغلاق المتن، وضاع الزمن من غير ثمن، بحيث صار "مختصر خليل" لا يفهم ما فيه إلا بستة أسفار للخِرَشي، وثمانية للزرقاني، وثمانية للرهوني، والجمع اثنان و عشرون سفرا، مع طول الزمن المتضاعف في الدرس والمطالعة في تفهم العبارات المغلقة"[1].

لهذه الأسباب تحمس "الحجوي" لإصلاح القرويين، برامجَ ونصوصا ومؤلفات ووضعية إدارية للأساتذة ونظاما للامتحانات، وتحصيلا للشهادات.

وعن برنامجه الإصلاحي للقرويين يقول الحجوي: "ولما حللت فاسا، جمعت علماءها الأعلامَ، وشرحت لهم الحال، ورغبتهم في تشكيل لجنة لتحسين حال القرويين من بينهم بالانتخاب على نسق انتخاب المجلس البلدي بفاس، إذ كان مرادُنا الوقوفَ على أنظارهم وحاجاتهم، وأن نُبديَ لهم ما ظهر لي من إدخال نظام مفيد، وإصلاحات مادية مع إصلاحات أدبية في أسلوب التعليم أيضا، وإحياء علوم اندثرت منها كليا، ونتبادل الآراء على عين المكان، ونجعل قانونا أساسيا للقرويين يكفُل حياتها ورقيها، ولا نبرم أمرا إلا بعد حصول موافقتهم، بل استحسانهم، فقبلوا ذلك بغاية الارتياح، وشكلوا لجنة من أمثالهم بأغلبية الأصوات تحت اسم "مجلس العلماء التحسيني للقرويين" تركبت من رئيس وستةِ أعضاءَ وثلاثةِ خلفاءَ يوم 21 جمادى الثانية عام 1332هـ 1914م.

فكنا نجتمع يوميا أطرح عليهم مسألة مما كنت أريد إدراجه من التنظيم والتحسين في القانون الأساسي للقرويين. ثُم ألتمس آراءهم وأسمع ملاحظاتهم، فيحرر كل واحد ما ظهر له ويؤخر البث في المسألة إلى جلسة ثانية، حتى يطَّلع المجلس على تلك التحريرات، ثُم يقترع على الرأي المقبول، فيُثبَت في سجل التقريرات أصل المسألة وما أبداه كل واحد منها، ثم ما وقع عليه رأي الجميع أو الأغلب عليه.

1) الفكر السامي، الحجوي ج2، ص705.

وفي الجلسة التي بعدها يسرد عليهم محضر الجلسة قبلها حتى يسلِّموه، فيُثبَت في سجل القرارات، وعند ذلك نشرع في إملاء مسألة أخرى، وعلى هذه الخطة كان سيرنا إلى أن تجمَّع في تلك القرارات مائة مادة ومادتان، مقسمةٌ على عشرة أقسام"[1].

إن أول ما يسترعي نظر القارئ للتنصيصات التي وردت بشأن إحداث هذا المجلس وطريقة عمله الهادفة إلى تحسين حال القرويين، هو ما كان يمليه الفقيه "الحجوي" وهو يمارس مهامه كرئيس للمجلس التحسينِيّ من مبادئ التواصل والتشارك، ويحث عليه من تطبيق قواعد التعددية والحرية الفكرية، في وقت لم تكن هذه القيم الديمقراطية قد وجدت سبيلها إلى التطبيق في المجالات الاجتماعية والإدارية بالمغرب[2].

يضاف إلى جملة القوانين التي عمل "الحجوي" على وضعها لتحسين الأوضاع التعليمية في القرويين، مجهودُه في تفقد المدارس وبث روح النهضة فيها، وعن ذلك يقول: "ومن أحسن ما أمكنني القيامُ به، تفقد المدارس من حيث العلوم العربية والدينية من حين لآخر، وتتبعُ سيرِها، وبثُّ روح النهضة فيها، والميلُ إلى إحياء علومنا، والتشبعُ من العلوم العصرية، وحثُّ المعلمين والمتعلمين على حفظ النظام، وتوجيه كلية النظر نحو العلم والأخلاق ومكارم الدين"[3].

واللافت للنظر، أن دعوة "الحجوي" إلى الإصلاح العصري للتعليم لم تكن صدى للمشروع الاستعماري الذي قضى بإدخال هذا النظام الحديث، لاستيلاد نخبة جديدة تحتاجها إدارة الحماية.

وإنما باعتباره جزءا من رهان داخلي على إعادة بعث الحياة في العلم والاجتماع الإسلاميين، فالحجوي دافع عن هذا النظام ودعا إليه، وكتب عنه، بل قدم تصورا كاملا قبل أن يسقط المغرب في قبضة الحماية الاستعمارية[4].

إن الرؤية الإصلاحية هذه للحجوي، لدليل على وعيه بمكامن الداء، ومكامن الدواء في النهوض بالأمة والرقي بها بين الأمم، فقد أدرك أنه ما من طريق إلى ذلك إلا إصلاح التعليم الذي على أساسه تبنى الأمجاد وتقام الحضارات. لذلك تأمل حال التعليم في عصره بعامة، وحال التعليم بجامع القرويين بخاصة، فركز اهتمامه عليه ورصد مواطن القصور والخلل في المناهج السائدة فيه، واقترح لها بدائل

1) المصدر السابق، ج2، ص531

2) العقل والنقل في الفكر الاصلاحي المغربي، حسن أحمد الحجوي، ص. 198، 199.

3) الفكر السامي. محمد بن الحسن الحجوي: 14/1.

4) عبد الإله بلقزيز، "الخطاب الإصلاحي في المغرب"، ص 126. انظر: "مسألة التعليم في الفكر الإصلاحي" لمحمد الحجوي مقال لمحمد الناصري. نشره في الملتقى الفكري للإبداع بتاريخ 10-11- 2009م.

من شأنها أن تطوره وتغير مجراه ومسيرته نحو العطاء المثمر المتميز في جوانب الحياة ومجالاتها المختلفة.

## المطلب الثاني: الإصلاح التربوي من منظور ابن عاشور

يُولي "ابن عاشور" الإصلاح التربوي أهميةً قصوى، وذلك لأن الإصلاح كما يقول: "هو مقصد الأديان وملاك السياسة، وعليه مدار الأمور كلها، فجميع تصرفات الأمة وأحوالِها يجب أن تكون صالحة، وذلك بأن تكون الأعمال عائدةً بالخير والصلاح لفاعلها ولغيره"[1].

مهَّدَ في هذا المشروع الإصلاحي للتعليم بحديثٍ عن نشأة التعليمِ العربي وأطواره قبل الإسلام وبعده، مبيّنًا أن "الإسلامَ انفرد من بين سائر الأديان بالتنويهِ بفضل العلم، والأمر بالاتصافِ به.. وبوضعِ رسومٍ للتعليم والتربية وتعميمِهما، والإلزام بهما.

ثم تحدَّث عن نشأة المدارس في الأمصار الإسلامية، مشيراً إلى أن بدايتَها كانت في العصر العباسي، إضافة إلى المساجد وبيوت الكتاب، وبيَّن طرُق التدريس في هذه المؤسسات، والعلوم التي يدرُسها المتلقي في ذلك الوقت، ثم التأريخ لمراحل التعليم في كثيرٍ من الأقطار الإسلامية، مثل: مصر، وإفريقيَّة، والأندلس، وبلاد فارس.. مبيّنًا أسلوبَ التعليم في هذه الأقطار، ومتناولاً طور التفكير العلميّ، والمشاركةَ في العلوم.

وفي فصل آخر: يتناول "ابنُ عاشورٌ" أسبابَ الضعف وتأخُّرَ التعليم، وعدمَ التطور الذي لحق التعليمَ في الأقطار الإسلامية، ويرى أن أسباب ذلك التأخر راجعةٌ إلى نوعين:

الأول: يرجع إلى الأسباب العامة التي قضت بتأخُّر المسلمين على اختلاف أقاليمهم، وعوائدِهم، ولغاتهم.

## الخاتمة:

من خلال هذا العرض السريع لأهم هاته الرؤى الإصلاحية لبعض سلاطين الدولة المغربية على مدى عصور مختلفة وعلمائها تظهر الحاجة الماسة إلى الانكباب على هذا التراث ومزيد العناية والاهتمام به لما يتضمنه من فوائد وفرائض لا يمكن الاستغناء عنها في كل عملية تثوير وتطوير لمناهج التعليم وإصلاحها وإعادة بنائها وفق رؤية منهجية علمية أصيلة تستند إلى الأصل وتتصل بالعصر.

1) محمد الطاهر ابن عاشور، "تفسير التحرير والتنوير"، 271/8.

## النتائج:

- لفتُ نظرِ من غَفَل أو تغافل عن جهود علماء الأمة وسلاطينها في الغرب الإسلامي في مجال التربية والتعليم.
- التنبيه على أن أي خلل منهجي أو موضوعي الذي يوجد بمنظومتِنا التربويةِ من أسبابه التركيز على النظرياتِ التربويةِ الوافدة والقصور الواضح في الإفادة من مناهج أمتنا وتراثنا الغني في ميدان التربية والتعليم
- لاحظ الباحث مدى كبير من الغنى والثراء الذي طبع المشاريع الإصلاحية السلطانية والعلمائية في تاريخ المغرب.
- لاحظ الباحث أنَّ هناك جوانب كثيرة ووفيرة يمكن أن تفيد فيها تلك التجارب في كل عملية إصلاح وإقلاع وتجاوز للمثبطات والمعيقات التي تحول دون العملية التعليمية برمتها والأهداف المرجوة منها.

## التوصيات:

- نهوض الأمم وسقوطَها وتقدمها وتراجعها منوطٌ بالتربية والتعليم، فإن الأمة إذا نجحت في برامجها التربويةِ حققت أهدافها، وإن هي أخفقت تراجعت عن أهدافها.
- التربية والتعليم هي السبيل الأوحد للإصلاح، والبناءِ والنهوض والتطوير والتغيير، وإقامةِ مجتمعات المستقبل.
- الإسهام ولو بقدر يسير في بناء علاقة جديدة مع الفكر التربوي وتنزيل الأصولِ وقواعدِه وأسسِه العامةِ، يقتضي الانكباب والرجوع إلى ما خلفه علماء الأمة وسلاطينها الذين تحدثوا وأبدعوا وأجادوا في هذا المجال.
- ضرورة الرجوع إلى التاريخ دائما وأبدا عند كل عملية تنظير للمستقبل أو معرفة للواقع.
- التاريخ المتعلق بالتعليم وطرائقه ومناهجه وأساليبه من آكد ما يهم الشعوب والمجتمعات في عمليات الإقلاع الحضاري وتاريخ الإسلام لا يشذ عن هاته القاعدة.

## قائمة المصادر والمراجع:


- حسن أحمد الحجوي، العقل والنقل في الفكر الإصلاحي المغربي، الناشر: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–المغرب الطبعة الأولى،2003م
- سعيد بنسعيد العلوي أوربا في مرآة الرحلة. صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، منشورات كلية الآداب. الرباط.
- عبد الإله بلقزيز، الخطاب الإصلاحي في المغرب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط 1، 1997.
- محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، 1984.
- محمد بن الحسن الحجوي، " أساس التهذيب الاسلامي"، مخطوط خزانة عامة.
- محمد بن الحسن الحجوي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، بيروت: دار الكتب العلمية 1995م.
- محمد بن سعيد، الاجتهاد والتحديث: دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب، مركز دراسات العالم الإسلامي، ط 1.
- مصطفى بنحمزة التعليم الديني بالمدرسة المغربية بين السلاطين والعلماء، جريدة هسبريس، 04 أبريل 2016 م.